الاستراتيجية العربية في ظل شارون

د. عبد الستار قاسم

15/ذو القعدة/1421

على عكس الأصول المتبعة في كتابة المقال أو البحث العلمي أريد في هذا المقال أن أضع النتيجة قبل استيفاء النقاش وهي أن استراتيجية العرب بعد انتخاب شارون كرئيس لوزراء الكيان الصهيوني الانتظار حتى الانتخابات الصهيونية القادمة. هذه النتيجة لا تحتاج إلى عقل مفكر لكي يتم الوصول إليها ولا إلى عبقرية، ومن الممكن سماعها بطريقة بسيطة من قبل أي شخص مهتم بالوضع العربي في هذا الوطن الكبير. بل من المحتمل أن يُسمعها أطفال لم تتطور لديهم طاقات كبيرة على ربط الأحداث وتحليل المجريات التاريخية، ذلك لأن الخبرة في هذا الصدد تلقي بثقلها يومياً على كل العرب حتى تحولت الآمال إلى تمنيات ولم يعد من الصعب التكهن بما يصدر عن سياساتهم العليا. وإذا كان هناك من يرى غير هذا فإنني أرغب في الدخول معه في حوار فكري محترم على صفحات جرائد العرب، وليأخذ الجدل مجراه عل فيه فائدة للجميع.

الحديث هنا محصور باستراتيجية عربية وليس باستراتيجية نظام عربي كالنظام في المغرب أو السودان أو العراق أو سوريا. إنه يتعلق بذات جماعية، على الرغم من هلاميتها، تعبر عن نفسها في قمم عربية وفي بعض آليات يطلق عليها التضامن أو أحياناً العمل العربي المشترك. وفي هذا التمييز يكمن مربط الفرس. بمعنى أنه إذا كان لكل نظام رؤيا، وإذا كان له استراتيجية أو بعض الأهداف بعيدة المدى فإن الاحتمال ضعيف جداً في قيام استراتيجية عربية تجمع متناقضات أو متشعبات تنطلق في اتجاهات متعددة، ويبقى من المفضل الوصول إلى تفاهمات عامة لا تعتدي على الخصوصية على الرغم من إمكانية خدشها بلطف وبدون أذى. تعدد الرؤى لا يقود إلى توحد خاصة إذا كان التناقض مبنيا فيها ولا يوجد في الأفق ما يشير إلى نوايا إذابتها أو صهرها في رؤيا عامة واحدة.

بعد سماع عبارات الكياسة أو البروتوكول التي ستصدر فور إعلان فوز شارون بالتأكيد سنسمع تصريحات تتحدث عن مساوئه، وربما تصريحات نارية تدينه وتعتبره رجل حرب ودمار. تصريحات من زعيم عربي معين ستكون لينة وتطغى عليها صفة الوعظ والإرشاد مركزة على محاسن السلام وكوارث الحرب، وزعيم آخر سيركز على الأخوة الفلسطينية ومصلحة الشعب الفلسطيني وسيستمر في زيارات متبادلة مع القيادة الصهيونية معللاً ذلك بأنه حلقة مهمة في تقريب وجهات النظر. أما القيادات الفلسطينية فستستمر في إطلاق تصريحات متناقضة تلهي بها وسائل الأعلام .سيطلق أحدهم تصريحا محذرا من فوز شارون وسيعدله بعض ساعات ليقول أنه يتعامل مع حكومة إسرائيلية ذات استمرارية مؤسسسية. آخرون سيرددون مقولات ثورية سبق أن سمعناها مرات، ونفر قليل سيبقى يعمل بصمت من أجل الخلاص من إسرائيل كلياً أو إخراجها من الأرض المحتلة/ 67 دون قيد أو شرط.

وفي كل الأحوال سيستمع العربي إلى زعماء عديدين يصفون المرحلة الحالية بأنها مرحلة حرجة وخطرة للغاية وأنها قد تعرض المنطقة إلى دوامات من العنف. وإلى آخرين يصفونها بالمرحلة الحاسمة وأن

العرب أمام اختبار حقيقي وعليهم ألا يتهاونوا أو يفترقوا. وستتم محاولات قيادية متعددة لصنع نوع من مشاعر الجدية في الشارع العربي، بالضبط كما حدث مع بداية الأحداث في الأرض المحتلة/67. لقد اعتاد العربي على تصريحات تعبر عن قوة الانتماء وعلى عبارات الغيرة على أبناء الأمة وعلى وعودات تحمل في طياتها معاني الحمية والشجاعة والثأر. وسينطلق أفراد الطواقم الإعلامية العربية الرسمية في هديرهم المعتاد مشيدين بالقيادات الفذة التي لا تلين لها قناة ولا تصبر على ضيم.

لا تعبر هذه الأسطر عن موقف آيديولوجي أو عقائدي ولا تقصد المس الشخصي بأحد، بل تعبر عن نتيجة مبنية على الاستقراء وليس على الاستنتاج. لقد فشل العرب مجتمعين من تحقيق إنجازات جوهرية ذات أبعاد استراتيجية على مدى قممهم إلا من شيء واحد وهو التعاون المخابراتي والاستخباري في مواجهة المواطن العربي. لقد فشلوا في التقدم نحو الوحدة، وفشلوا في زيادة الإنتاج الغذائي الذي يشكل القاعدة الأولى لتحقيق الأمن العربي. وفشلوا في البناء العلمي والتقني على المستوى العربي وبطريقة تجعل العرب لاعبين أساسيين في البناء الحضاري العالمي. ولم ينجحوا في تحرير فلسطين أو في السيطرة على ثرواتهم ونزعها تماماً من إستغلال الأجنبي، وألقوا بثقل ثقافي قطري تغذى على المصلحة العربية العامة وباعد ما بين الناس. والأهم من ذلك أن الأنظمة العربية صنعت انطباعاً عالمياً بأن العرب مطية لمن يريد أن يمتطيهم وأنهم لقمة سائغة أمام من يريد أن ينتصر في الحروب. الحقيقة المؤلمة تقف شاهدة أمامنا وأمام غيرنا وهي أننا نتكلم بأكثر مما نعمل ونفعل في كثير من الأحيان بتناقض مع ما نقول. لقد تراكمت الأدلة والدلائل بحيث أصبح من السهل الوصول إلى نتائج وبدرجة عالية من الثقة.

نجحت الأنظمة العربية في بعض الأمور البسيطة وأخذت الجامعة العربية دورها في ذلك. فمثلاً أصبح هناك مؤسسة ثقافية تسهل اللقاءات والنشاطات المشتركة، لكنها غير قادرة على تخطيط وتنفيذ سياسة ثقافية عربية، وهناك تعاون شرطي في ملاحقة اللصوص والمجرمين، لكنه ما زال هناك اختلافات في تعريف اللصوصية والإجرام. نجحت الأنظمة أيضاً في بعض التعاون العسكري مثل تبادل الخبرات وتوفير فرص التدريب، لكن هذا بقي دون التعاون القائم بين أنظمة عربية ودول غير عربية ولم يمنع قيام حروب عربية ــ عربية. ولا شك أن اللقاءات العربية على كافة المستويات قد شهدت تحسنا ووتيرة متصاعدة مع الزمن، وأن نغمة التقارب العربي على شاشات المرناة واضحة وتصنع أجواء صحية لتقوية مشاعر الأخوة والمصير المشترك بين أبناء الأمة. ومن الواضح أيضا أن حدة الخلافات العربية لم تعد تعبر عن نفسها بتعبيرات من السباب والشتم إلا ما ندر. لكن هذا النجاح وغيره لم يتبلور إلى عمل استراتيجي ولم يزحف بصورة جوهريةعلى الرؤية الخاصة لصالح الرؤية العامة.

بعد كل الإخفاقات العربية الجماعية عبر عشرات السنين هل تستطيع نفس الأنظمة أن تبني استراتيجية عربية تنجز شيئاً جوهرياً للإنسان العربي أو تواجه شارون؟ هذه الأنظمة عجزت عن فعل ذلك في شبابها وكهولتها ولن تقوى على ذلك في شيخوختها. شأنها في الغالب شأن أي شخص تتناقص قدرته على العطاء كلما تقدم في السن. ربما يقول أحد أن هذا الكلام غير دقيق لأن النظام ليس شخصاً وإنما مؤسسة. هذا قول مردود لأن النظام في بلادنا عبارة عن شخص، وفي أحسن أحواله عبارة عن مجموعة تتربع على مقدرات الأمة وتكبت أنفاس الشعب وتنهب مقدراته باسم المصلحة الوطنية. ليس هذا فحسب، بل إن بعض الأنظمة

منبثقة عن الاستعمار الغربي ومواليه له وتخضع لأوامره وتنفذ متطلباته وتلبي مصالحه، علماً أنه استعمار لم يدخّر جهداً في معاداة الوحدة العربية ومنع العرب منتطوير التقنية وفي دعم الكيان الصهيوني مادياً وعسكرياً ليبقى متفوقاً على العرب مجتمعين.

لكن هذا لا يمنع أن يتخذ العرب بعض الخطوات الصيالية (التكتيكية) لمواجهة ما يستجد في سياسة الكيان الصهيوني في ظل رئيس الوزراء الجديد. وهذا أيضاً ليس جديداً إذ دأبت الأنظمة على تغطية ما تعجز عن القيام به استراتيجياً ببعض السياسات والمواقف الآنية التي تخدم مرحلة معينة. فمثلاً من الممكن أن تزداد زيارات القادة العرب ومساعديهم لواشنطن أو الإتصال بها من أجل الضغط على الكيان الصهيوني. هذا أمر وارد جداً وربما بدأ يتبلور منذ الأيام الأولى لتنصيب الرئيس الجديد حيث أن العديد من الأنظمة نظرت باستمرار إلى الضغط الأمريكي على الصهاينة كأحد أسباب القوة العربية، وهو ما يعرف في المصطلح السياسي العربي بقوة الاستجداء. ومن الممكن أن يوقف بعض العرب زياراتهم السرية للكيان الصهيوني وأن يضغطوا على وسائل الإعلام خاصة في بعض دول الخليج لوقف عملية التطبيع. ومن المحتمل أن ترفع بعض الأنظمة من قيمة المساعدات المالية والمادية المقدمة للفلسطينيين.

سيستمر العرب كمجموعة قممية في نمط قديم حديث يرتكز على العناصر التالية: الاستنكار بأشكاله الشديدة والمخففة والمتوسطة، تقديم الدعم المالي والإشادة بالأخوة والتذكير بالمصير المشترك، الاستناد على قوتي المنطق والاستجداء لتليين مواقف دول يمكن أن تؤثر على الكيان الصهيوني، التهديد والوعيد غير المستندين على قوة مادية حقيقية جاهزة للفعل، الدعم الإعلامي للفلسطينيين ضمن منطق الصلح مع الصهاينة، اللجوء إلى هيئة الأمم المتحدة التي تتحكم الولايات المتحدة بوابتها.

ليس العرب هم الذين اعتادوا على خطوات رسمية صيالية محدودة وعناصر قوة وإنما الصهاينة أيضا اعتادوا على هذا السلوك العربي. وهنا أذكر القادة العرب ما قالته جولدا مئير رئيسة وزراء الكيان الصهيوني أيام تعرض المسجد الأقصى للحريق عن توقعاتها وردود فعل العرب. لقد قالت أنها توقعت غضباً عربياً يعرض إسرائيل للمخاطر لكنها فوجئت بأن رد الفعل العربي لم يتجاوز أسبوعاً من الاستنكارات. وإذا قرأ أحد كتاب نتنياهو المعنون <u>مكان تحت الشمس</u> سيجد مدى الاستهتار بالعرب. يقول نتنياهو أنه على إسرائيل ألا تعطي شيئاً للعرب لأنهم سيطالبون بالمزيد إن حصلوا على شيء، ويلمح بطريقة خفية إلى ما يظنه المنطق البدوي في الانتهازية. ويضيف بأن العرب إن لم يحصلوا على شيء فإنهم سيتنازلون. أما في البعد الشعبي فإن الكثير من اليهود يشبّهون العرب بالسجاد العجمي تزداد بهجته كلما ديس. وعندما سال أحد عن كيفية تكون هذه النظرة لدى العدو وترسخها ضمن رؤيا شعبية يأتيه الجواب من الذين لعبوا الدور الأساس في تكويه وهم نحن. صحيح أن الدعاية الصهيونية ضد العرب مكثفة وواسعة إلا أنها لا يمكن أن تصمد مع الزمن إلا إذا لم تصطدم بما يناقضها. لقد اعتاد الصهاينة على الانتصار علينا، واعتادوا على سماع كلمات أكبر من أفواهنا وسيوف أطول من قاماتنا، ولم تعد ترهبهم تصريحاتنا وتهديداتنا إن هم كلفوا أنفسهم سماعها. وإذا كان لمرء أن يفقد مصداقيته لدى عدوه فهل يمكن أن يصونها لدى صديقه أو ابن جلدته؟ إن من ينزع رهبته من صدر عدوه لا بد أن يكون قد فقد احترامه لدى صحبه منذ أمد بعيد ذلك لأن الصاحب يرى التقصير عن قرب وبوضوح.

بعد فترة وجيزة سينعقد مؤتمر القمة، ومع كل التمنيات بأن يكون مؤتمراً مختلفاً عما سبق إلا أنني لا أرى أنه سيكون كذلك. لا أجد أن شيئاً قد استجد لدى الأنظمة العربية بحيث تغيّر من مساراتها وولاءاتها وسياساتها التي اعتاد عليها العربي، ولا أرى أن تغييراً جماعياً فجائياً سيحصل ويقلب سيرة الماضي إلى تاريخ قد مضى. سيبقى الماضي حاضرنا وسنبقى نجتر عبارات قد ملّها القرطاس والقلم.

وهنا يتصدر التبرير لائحة وسائل الهروب من الواقع المرير والذي يمكن اختزاله بالتالي: شارون رجل حرب طائش يعمل على جر المنطقة إلى الويلات والمصائب، لكن الحكمة العربية تأبى الانجرار وراء الرعونة وتفضل الروية والهدوء والتعامل مع المستجدات بعقلانية. إن القادة العرب مع قناعاتهم الراسخة بالسياسة العدوانية لشارون وحكومته ووجوب الاستعداد لمواجهتها يسعون بإخلاص وجد لدى كل الدول الصديقة والقوى المحبة للسلام لوضع حد للغطرسة الإسرائيلية وإيقاف عدوان المعتدين، وإلا فإن المنطقة ستنفجر في حرب طاحنة لن ينجو أحد من أضرارها وعلى المجتمع الدولي أن يتحمل مسؤولياته مثلما يثبت العرب أنهم أهل مسؤولية.

طبعاً هذا التبرير ليس موجهاً للعالم لأن العالم يعرف حقيقة الوضع العربي لكنه موجه للمواطن العربي بهدف تغطية الحقائق وصنع أوهام لا واقع لها. وحسبه تتضح محاولات تصوير العجز على أنه عقلانية وحكمة، وإيهام الناس بأن عدم اتخاذ خطوات فعالة ضد إسرائيل يخفي تحته قدرة كبيرة لا تظهر للعيان، وأن العالم مستهتر ويغامر بمصالحه إلا القادة العرب الذين يتحسسون مسؤولياتهم والتزاماتهم تجاه الإنسانية. وحيث أن العربي قد اعتاد على سماع عبارات التبجيل الذاتي والثناء والإشادة فإنه لم يعد بصورة عامة قادراً على هضم التوريات وصنع المعجزات الكلامية.

ليس من المتوقع أن نخرج من تيه ما اعتدنا عليه وتبقى أفضل الوسائل للسيطرة على الغطرسة الإسرائيلية هي تغيير الحكومة الإسرائيلية ورئيسها. وأملنا يبقى في الناخب الإسرائيلي الذي يستشعر الأمور ويهتدي إلى الصواب فلا يطول صبره على شارون ويدفع باتجاه انتخابات جديدة. هذه هي استراتيجيتنا في المرحلة المستجدة. طبعاً هذه ليست استراتيجية لكن لا مانع من تسميتها كذلك ما دمنا نخجل من تسمية الأمور بمسمياتها. لا مبالغة في هذا حيث بدأ العديد من العرب يتحدثون عن عدم الاستقرار في الوضع السياسي الإسرائيلي وسرعة قلب الحكومات، ويحاولون طمأنة الجماهير بأن شارون لن يبقى طويلاً على سدة الحكم. هذا ما ورد حتى الآن على لسان أحد المسؤولين الفلسطينيين الذي حاول طمأنة الناس بأن شارون لن يدوم إذا كان الفوز حليفه.

استراتيجيتنا ليست معقدة ولا هي تنجيم أو درب غيبي. نحن ننتظر انتخابات الآخرين لنعرف ماذا سيحصل في بلادنا. يحين موعد انتخابات الولايات المتحدة أو إسرائيل فتقفز قلوبنا ضارعة علّ الناخب يلبي أمانينا. ويبقى السؤال حول ما نفعل إذا بلغ التطور السياسي في هاتين الدولتين حد إلغاء الانتخابات.